قصة قصيرة

انبعاث

الطيّب الطّويلي*

أعلن الطبيب: " انتقل إلى جوار ربه".

قالها مع المحيطين بجسدي الهرِم المسجى وارتفع النحيب وعلا النواح بينما كنتُ أنسلخ من ذلك البدن العليل اليابس وأحسست كأنّني أشعر بالتحرر من ثوب بال خانق ضيق .

وددت أن أجيبه: "لستُ في جوار الله, أنا ما أزال بينكم ", وأحسست به يسدل اللحاف على وجهي الشاحب, والحزن في عيون أبنائي مع لوعة تعتصر ابنتي وهي تهوي بذراعيها على الصدر المغلف بالبياض, على صدر الشيخ التسعيني الأجوف الذي لم يعد بعد الآن صدري.

رأيت جموع المعزّين ينثرون دموعهم, وشعرت أني أقدر على التمييز بين الصادق والمجامل, واستمعت إلى زوجتي العجوز تندب قائلة: "وداعا يا حبيب العمر". كانت تبكي بحُرقة, هي حقا توأم روحي ورفيقة أكثر من ستين عاما, وكنت أخشى عليها من الموت, أما الآن فإني أتمناه لها حتى تتخلص من ذلك الثوب القديم وتلقي عنها تلك الجلود.

واتفق الجميع على الإسراع بدفن الجثة, علينا أن نواريه الثَّرى بعد آذان الظهر فإكرام الميت دفنه كما قال المقرئ قبل أن يبدأ في ترتيل آيات قرآنية. " لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ."

---

* دكتور في علم الاجتماع وروائي من تونس.

بدأ الخوف يسري إليَّ، أحس أنّي أرى أشياء لم أكن أقوى على رؤيتها، عينُ الشّامتِ، نظرةُ الطامع، وأرى كائنات أخرى تتجوّل بين الناس، يبدو أنّها الملائكة، كثيرة جدا، بمختلف أحجامها، بعضها يكتب على شيء يشبه المرآة وبعضهم واقف أو طائر. ورأيت كائنات أخرى من نوع آخر تنظر من بعيد وتهرب. ومع التجوّل خارج غرفة الميت أمكنني رؤية مخلوقات أخرى، منزوية، خائفة، وكأنها في انتظار نهاية المأتم وافتضاض تجمّع المخلوقات الكثيرة.

تملكني الرّعب، سيأخذونني إلى القبر، لعلي سأرجع حينها إلى ذاك الجسد وأسجن في رمس موحش وحيدا إلى الأبد .

وسرعان ما حمل الجموع الجسد في جنازة مهيبة. فكّرت في البقاء في المنزل وترك ذلك الجسد الذي أتعبني لعقود في مسيرته الأخيرة. ولكن شيئا ما بداخلي دفعني إلى متابعة الجنازة .

كنت أطوف فوقهم، وكانت أعداد المخلوقات الغريبة تتناقص أثناء المسيرة. حتى وصلنا إلى مكان القبر المفتوح ورأيت هناك أعدادا كبيرة من تلك المخلوقات. إنها الملائكة لا ريب، وكما في المنزل مخلوقات أخرى لا تشبهها تنظر من بعيد.

أنزلوا الجثمان إلى القبر وأخذوا يهيلون التراب، وظهر حينها كائنان ضخمان كأنهما مزيج من البشر والملائكة، اقتربا مني وظلا يراقباني دون أن يوجها إليّ الكلام. وبدأ الجمع ينفض إلّا ولدايَ اللّذيْن بقيا بعد أن فرغ المكان من جميع الكائنات. انحنيا على الأرض ليلقِّنا الجثة الشهادتين. اخترتُ أن أغادر فالكائنان أصبحا يثيران هلعي، وقدّرت أنّه من الأسلم لي الهروب،

ولكنّهما التصقا بي وجعلاني بينهما عاجزا عن الحراك. وبقيا على هذه الحال ينظران إلى الولَدَيْن حتّى اطمأنّا إلى أنهما غادرا ولم يبق في المقبرة أحد فصرخ أحدهم في وجهي: "من ربّك؟" واضطربت قبل ان أجيب "لا إله إلا الله محمد رسول الله." إنهما منكر ونكير بلا شك وها أنا أجبت الجواب الأمثل, ومع ذلك فقد ازداد جزعي وعظم هلعي.

أخرج الثاني قطعة كالمرآة وشرع يقلّب داخلها وكأنه يبحث عن شيء ثم قال: "ها هو اسمه عندنا, منصرة المناجز واسمه هنا الشيخ عبد الحق. مسلم صادق أمضى سنوات في عبادة الله وعمل الخير. لقد قضى حياة رائعة.

التفت الثاني إليّ قائلا: أحسنت أيها العبد.

قلت في فرح: سأذهب إلى الجنة إذن؟

ابتسم وقال: "جنّة؟ الجنة بعد الحساب. الله وحده يُدخل الجنة وبفضله. نحن هنا مبعوثان".

وقال الآخر: "حسنا فلنعرض عليه الخيارات ونمضي."

وصرختُ مرعوبا: "خيارات؟ ستقترحان عليّ عذاب القبر؟ أرجوكما لا."

قال أحدهما: " أيّ قبر؟ هل ترى أنك في قبر؟ عذاب القبر لأولئك الذين يظنّ النّاس أنّهم ماتوا فيعلنون وفاتهم ولكن يستيقظون في القبر فيعيشون فيه أياما وهم أحياء. فعلا هو عذاب فظيع. أنت ميت مُنْتَهٍ, خرجتَ من الدّنيا وانتهيت."

أجبتُ: "فعلا. كنت دائما أستعيذ من هذا العذاب والحمد لله أن الله أجارني منه. وماذا تفعلان عندما يكون الميت في حالة حياة داخل قبره؟ "

- لا شيء ننتظر حتى تقبض روحه وينتهي موته لنأتيه ونطرح عليه بعض الأسئلة ثم نقدم له الاقتراحات ونمضي.

- هاتا اقتراحاتكما.

كان صاحب المرآة صامتا يقرأ فيها بانتباه في حين أجابني الآخر :

- الاختيارات ثلاثة أوّلها أن تبقى تجول بروحك في الأرض أنى تريد وحيث تشاء. والثاني أن تذهب إلى البرزخ لتنام مع بقية الأرواح حتى تقوم الساعة, والثالث أن نأخذك إلى بوّابة الانبعاث حيث تدخل فتنسى حياتك السابقة فلا يبقى لك منها غير شذرات أو ومضات لا تكاد تذكرها. ثم ندفعك في رحم آخر وتنبعث بعثا جديدا.

سألت في حيرة: بم تنصحاني؟

أجاب صاحب المرآة: الحقيقة أنّك أمضيتَ حياة مثالية يصعب إعادتها. كما أنّها الأولى والوحيدة. أنصحك أن تتوجه إلى البرزخ, وعندما تقوم القيامة يكون لديك ملف جيد تكون به حظوظك وافرة للدخول إلى الجنة. أما إذا عِشتَ حياة أخرى فقد تكون سارقا أو عربيدا وتجني بذلك على نفسك. كما أن الحياة التي تتلهفون عليها مملة ومليئة بالامتحانات والآلام. اشكُر ربك أنك أمضيت حياتك على خير ونم في البرزخ نوما هنيئا.

ولم يعجبني اقتراح النّوم الأزلي. لديّ فرصة أخرى للحياة فلماذا أختار الموت؟

- وتساءلت: إذا اخترت التجوال بروحي بين الناس؟ ستتركونني وشأني؟ ودون أن يؤثر في ملفي شيئا؟

- بلى, وإذا مللت من ذاك الوضع يمكنك أن تغيّر إلى خيار آخر.

-وإذا اخترت أن أنام قليلا في البرزخ ثم أغيّر؟

- أجاب بهدوء :بالطبع الخياران الثانيان لا تغيير فيهما. فالبرزخ تكون فيه نائما والحياة الثانية تكون فيها مثل النائم حتى يرفع عنك غطاؤك من جديد. ولك الخيار.

واخترتُ أن أبقى حرّا على الأرض, أراقب الناس الذين عاشرتهم أو أولئك الذين كنت فضوليا حول الكيفية التي يعيشون بها ممن كانوا بعيدي المنال.

ووجدتُني أرجع إلى بيتي أجول وأحوم فيه وحوله, ورأيت الصراع الدائر بين الأولاد على الميراث, وأراد الذّكران الاستحواذ على نصيب أختهما, وهي أصرت بدعم من زوجها على عدم التفريط في شيء. كانت الخصومة تزيد على الميراث, بالرغم من أن والدتهم حيّة ترزق بينهم.

مع مرور الأيام شعرت بضجر شديد. كنت دائم التجوال بين غرف المنازل. لم أترك دار جار أو وجيه أو حاكم لم أدخلها, وأحيانا أدخل فأفاجأ به في خلوته أو في خلائه فأشعر بخجل. لا أنام. لا شهوة عندي ولا حسد لأصحاب المال. أجول وأتفرج دون أن يشعر بي أحد. راقبتُ مرّة حفيدي وهو يلعب مع أترابه وحين أصابه التعب ألقى بجسمه الصغير تحت صخرة رأيت تحتها عقربا. دفعت حفيدي ليهوي بعيدا عن الحشرة السامة. وعندما حكى لأمه أن شيئا ما دفعه وأنقذه من العقرب قالت له: "سترك ربي. المهم لا بأس."

كما كنت قد تدخلت بعض التدخلات الأخرى, وهمست لبعض الناس ببعض المواعظ أو الحكايات. ذهبت مرة إلى دار ابنتي لأهمس لها بعدم التشبث بالميراث لأن المال فان والحبّ باق. فإذا بي أجدها عارية مع زوجها. مما زاد من شعوري بالضيق من وضعية الروح الجوالة .

ها هي حبيبة العمر تحتضر, ستلتحق بي ثمّ نقرّر ماذا نفعل في حياتنا السرمدية. كنتُ حاضرا ساعة وفاتها ورأيت روحها ترفرف في رحاب المنزل, لم تتعرف عليّ لأنّني كنت بالنسبة إليها كائنا ضمن عشرات الكائنات التي تراها لأول مرة.

وددت أن أقترب منها لأطمئنها, ولكنّ عددا من الملائكة حالوا بيننا وأجبروني على متابعة الجنازة من بعيد. وشاهدتها وهي تحاور الملكين ويطرحان عليها الاختيارات, دعوتُ الله أن تختار وضعية الروح الجوالة ولكنها قالت بلا تردد: "أريد أن أنام. خُذاني إلى البرزخ, إني سعيدة بخروجي من الدنيا بسلام وبلا آلام, لا أريد شيئا سوى الراحة."

وتابعتهم وهم يأخذونها إلى مكان قصيّ خارج الأرض حيث رأيت كائنات من أشكال وأحجام أخرى.

-افتحوا الباب

قال أحد خزنة البوابة الضخمة وأدخلوا زوجتي مع فيلق من الأرواح. استرقت النظر من بعيد فوجدتهم يتضاءلون تدريجيا حتى تحولت كل روح إلى نقطة ضوء واستقرت في جوف البرزخ ثم أوصدوا الباب.

وأسرعت نحو الملكين قبل ان يغيبا وصرخت:

-انتظرا, لقد قلتما إني قادر على تغيير الاختيار. انتظرا.

ووقفا ينظران إليّ قادما كوميض البرق, وقال أحدهما:

-تريد البرزخ؟ هيا فنحن على الأبواب.

-كلا. أريد حياة جديدة. لا اريد التّحوّل إلى نقطة أزليّة بلا معنى. حتى عندما كنت حيّا كنت أكره النوم."

- وأجاب صاحب المرآة في هدوئه المعتاد :حسنا لك ذلك. هيا إلى بوابة الانبعاث.

-يعني سأتحول إلى إنسان جديد؟ مختلف؟

-وتنسى كل ما كان إلا بقايا قد تعلق في روحك لا تكاد تذكرها.

يا لها من كائنات هادئة تفعل ما يُطلب منها, وتجيب عن كل سؤال, وزاد هذا في طمعي فقلت:

-حسنا. هل يمكنني أن أطلب شيئا؟

-ماذا تريد؟

- أرغب في أن أكون ذكرا, وأن أبعث مرة أخرى في هذا البلد.

- حسنا. لك ذلك. تولد في هذا البلد ولكن لا نضمن لك أين ستموت .

ثم أضاف مستعجلا: هل نأخذك إلى بوابة الانبعاث؟

- خُذاني

والتفت إلى زميله صاحب المرآة قائلا: "جِد له امرأة حاملا من هذا البلد لنقذفه في جوفها."

وأخذ يجول في مرآته في صور لنساء واختار واحدة وقال:

-هي ذي. في شهرها الرابع. هيا بنا.

فقلت مستاء:

- لم تعجبني. أريد أن أختار.

أجاب في هدوءه الثابت:

-حتى هذه تريد ان تضع فيها شروطك؟ إنها ستكون والدتك. لا معنى للجمال هنا.

- بالعكس. أريد ان أختار الأجمل وأضمن ان أكون وسيما. ميزة حُرمت منها في حياتي السابقة.

واستدار لي الملاك بمرآته يعرض عليّ وجوه النساء, وأوقفته عند واحدة فائقة الجمال وقلت: "أريد هذه."

ضغط على الصورة وتابع خطوطا لم أفهمها ثم قال: هي في شهرها الثالث. لم يحن الوقت بعد لقذف الروح في الجنين.

أجابه الآخر: "لا مشكل. نأخذه إلى بوابة الانبعاث وندعه ينتظر في الداخل. سيغتسل بزبد النسيان أكثر وينزل الدنيا متحللا من الرواسب ."

وأخذني الملكان بينهما وطارا بي مسافة طويلة حتى وصلنا إلى بوابة شبيهة ببوابة البرزخ عليها كائنات شداد. ذهب صاحب المرآة إلى أحدهم فحدثه وأراه شيئا في المرآة فهمت أنها صورة المرأة. وتركاني له فأمسك بي وأخذني إليه واعتصرني اعتصارا, ثم فُتحت البوابة وألقيتُ داخلها. وجدت نفسي في مكان فسيح لا شيء فيه سوى التراب والماء والهواء. يلفعني التراب حينا, يداعبني النسيم تارة ويغمرني الماء طورا, وتغلغلت في ذاك المكان الواسع وتوغلت في ذاك البراح وتوغلت وتغلغلت.

الآن, عمري خمسة وأربعون عاما, منذ أربعة عشر سنة تحصلت على أرفع الشهادات, لا اشتغل, معطّل معطب, أجلس متهالكا منذ نصف ساعة على المقعد الخشبي في الحانة, في جوفي قارورتان ونصف من الخمر.

أتمنّى ان أموت وأقابل الملَكَيْن ولكن تعوزني الشجاعة, أخاف من الدم, من كلام الناس, أخاف من كل شيء, ولكني لا أخاف الله, أحبه, وحده الله الذي لم يقدم إلا الخير, السوء لم أجده إلا في بني البشر.

أتمنى أن أموت وأقابل الملَكَيْن, سأطلب النوم في البرزخ حتى يأتي يوم الحساب, أعلم أن حياتي الحالية ستجعل ملفي سيئا لا يؤهلني إلى الدخول إلى الجنة, ولكن رحمة ربي أكبر وأكبر, كما أن حياتي السابقة قد ترقع الكثير من سيئاتي الحاضرة .

أتمنى أن أموت وأقابل الملَكَيْن, قد أطلب حياة جديدة تغطي على فشل هذه الحياة, وسأشترط ان أبعث في بلد آخر .

أود أن أقصّ كل ما رأيت على أحدهم, لكنّني لن أفعل حتى لا يتهموني بالجنون, أعلم أني إذا لم أبح بالحكاية سأختنق بها. عليَّ أن أتحرر منها كما يتحرر الميت من جسده العليل, سأفعل ما تعودت فعله دوما. سأكتبها, سيقرأها بعضهم ويمرّ, لن يقرأها المختصون لأنهم لا يقرؤون إلا ما يمكن أن يرقيهم مهنيا. وستبقى قصتي نائمة معلقة في برزخ الحكايات حتى تقوم ساعته.

..... ***** .....